الدكتورة: خطار نادية

المحاضرة السادسة: التناصية و انفتاح النصوص

إن المبدأ القاعدي الذي ينهض عليه مفهوم التناصية l'intertextualité هو تقاطع نص مع جملة نصوص أخرى إلى درجة التشابك، فيتحول النص إلى مجال حيوي وإلى فضاء من التفاعلات نتيجة العلائق الحوارية التي يقيمها النص مع النصوص وصيغ الخطابات المختلفة والتي تشكل بالنسبة إلى الناسخ الموسوعة التي ينهل منها إثر استنساخه النص الجديد والبنية النصية الشاملة التي يتكون منها النص من جهة ثانية.

من هنا، يبدو أن مفهوم التناصية قد أتاح(الإنتقال من الشيفرة اللسانية إلى السيميوطيقية،أو الأيدوليوجية بوجه عام، وذلك عن طريق رفض الانغلاق، باعتبار النص يشتغل"منفتحاً" على نصوص سابقة) تبعاً لذلك،تصبح التناصية خاصية أساسية في بناء أنساق النصوص و الخطابات.

تعد الحوارية النقدية مفتتحا تصوريا للتناصية وعتبتها المبدئية وعليه، ليس عجبا أن يقترن اسم"**جوليا كريستيفا**" في الأوساط النقدية باسم"**ميخائيل باختين**"،غيرأن"**كريستيفا**"في(استبدالها مصطلح الحوارية عند "باختين"مصطلح التناص لا يعد عملها استنساخا للمفهوم الباختيني) كيف؟- أولاً: لاختلاف الفترة المعرفية التي ينتمي إليها كل ناقد منهما.-ثانياً: لأن التناصية قراءة واصطلاح جاء ليقرأ الحوارية قراءة عمودية.

يترتب عن هذين السببين، تعديل وتطوير في المفاهيم والرؤى، فإذا كانت الحوارية مجالاً تلتقي فيه جملة نصوص تتجاوب،تتفاعل،تتحاور داخل الخطاب الروائي الواحد،فإن مفهوم كريستيفا للتناصية امتد ليشمل كل النصوص فهو(كل نص يبنى كفسيفساء من الإستشهادات كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر) عبر إجرائية الكتابة.

إن التناصية بوصفها أداة ومقولة نقدية ترفض كل انغلاق للنص انطلاقا من النظر إليه كونه عملاً لنصوص سابقة حظي بجملة تعريفات،إلا أن التعريف الذي قدمه" ميشال ريفاتير"أهمها،حيث إنه قام

بوضع تفرقة ميز فيها بين ظاهرتي التناصية وتداخل النصوص نظرا للخلط الذي يحدث بينهما (إن التناص هومجموعة النصوص التي نجد بينها وبين النص الذي نحن بصدد قراءته قرابة،وهو مجموع النصوص التي نستحضرها من ذاكرتنا عند قراءة مقطع معين.أما تداخل النصوص، فهو ظاهرة توجه قراءة النص ويمكن أن تحدد تأويله،وهو قراءة عمودية مناقضة للقراءة الخطية).

يتضح لنا من خلال هذا المعطى الحفري الذي قدمه"**ريفاتير**"أن التناص نتاج قراءة وحدوثه غير قصدي،لكنه يحقق متعة ولذة لدى المتلقي،ولكن على الرغم من ذلك لا يعدو أن يكون إلا قراءة استهلاكية؛لأن متلقيه لا يهتم بالسبب ولا بالمصدر الذي نتج عنه التناص،كما أن متلقيه لا يحمل هم ولا مسؤولية الإسهام في إنتاجية النص بل يكتفي باستهلاك المعنى فقط،في حين أن تداخل النصوص بوصفه منهجا نقديا هو نتاج كتابة وهو يحمل قصداً وعليه فمتلقيه يسهم في إعادة إنتاجية النص عبر عمليتي القراءة والتأويل والدخول في حركة سميوزيسية مفتوحة ولا نهائية. إن التناصية كونها قراءة عمودية، فقد طرحتها(**كريستيف**ا) تصوريا حيث مكنها مبدأ الحوارية لدى "**باختين**" كي يمهد لها الطريق لوضع "نظرية للنص" أو"علم للنص" وعلاقتها بالإنتاجية النصية التي لن تتحقق إلا من خلال ما اقترحته(**كريستيفا**)من(صياغة صورية لعلاقات النص دون اختزالها في شكلنه ،بل بفتحها على قوانين نوع الإنتاجية،وبهذا يصبح علم النص تكثيفاً، بالمفهوم التحليلي للكلمة،وانفتاحاً عل الممارسة التاريخية) وتبعاً لذلك، يغدو النص نسقاً ديناميكياً من العلاقات التي تتحرك داخل مجال العلامة الرحب أي؛ داخل نظام ثقافي متعدد.

وقد كان سبيل"**كريستيفا**" في ذلك هو توسلها با لسيميائيات التحليلية أو السيماناليز الذي تسعى من خلاله إلى (البحث في الإنتاج النصي ، وإنشاء علم سيميائي جديد تخالف به سيميائيات التواصل وسيميائيات المعنى) لأن إنتاج نص لا يرتهن لسنن خطي يشترك فيه الباث والمتلقي،كما أن إنتاج المعنى لم يعد وقفا على ما يريد المؤلف إبلاغه. من ثم ، فإن إنتاج المعنى هو نتاج الصلات والعلائق الحوارية التي تربط نصا بغيره بطريقة مباشرة وغير مباشرة،عن قصد وبدونه(النص إذن إنتاجية (productivité)،وهو ما يعني :1-أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع.redistributif(صادمة-بناءة)،ولذلك فهو قابل ذلك هو قابل للتناول عبر المقولات

المنطقية لاعبر المقولات اللسانية الخالصة؛2-إنه ترحال للنصوص وتداخل نصي؛ففي فضاء نص معين تتقاطع و تتنافى ملفوظات عديدة مجتزئة من نصوص أخرى).

منحت التناصية منحت النص القدرة على امتصاص النصوص الأجنبية عنه ليقوم بتحويلها و تفعيلها وإعادة تشكيلها من جديد،فيتحول نسق النص إلى نسق مفتوح(و فضاء متعدد الأبعاد، تتمازج فيه كتابات متعددة وتتعارض من غير أن يكون فيها ما هو أكثر من غيره أصالة: لنص نسيج من الثقافات تنحدر من منابع ثقافية متعددة) وهو ما يجعل من عملية التنقيب والبحث عن أصل النص والخطاب ضرباً من المستحيل كونه لا يتخلق من نسب وحيد وأولي،إنما خليط خاضع لولادة غير خالصة" (engendrement inpurmente).

إن النص الأدبي نص حواري يحيل دائماً إلى الماضي على الرغم من راهنيته؛ أي على الرغم من أنه يحيا في الحاضر إلا أن علاقته بماضيه وببدايته وبالأسيقة المحيطة به وطيدة جداً باعتبارها مصدرا لبنائه ومن هذا المنظور، يمكن عده قراءة وإعادة كتابة لصيغ خطابات أنواعية متنوعة و متعددة.

بهذا،فإن المبدأ الأساسي الذي ينهض عليه بناء نسق النص وكذا الخطاب هو مبدأ الحضور /الغياب،الوجود/ العدم،الظهور/الخفاء...الذي يفضي إلى تمديد أفقه الأدبي.

تسعى التناصية إلى إلغاء دور المؤلف داخل النص واستبداله بالمتلقي كذات حيوية مرنة تحاور النصوص،تفجرها...وتسهم في إنتاجيتها من خلال فاعليتي القراءة والتأويل غيرأن حضور المؤلف داخل النص لم يعد صوتاً سلطوياً يتحكم في دلالة النص و في عملية تأويله، و إنما صار دوره هو النسخ و الربط أو الحياكة بين النصوص وصيغ الخطابات والأنواع الأدبية واللاأدبية ليس بهدف التكرار أوالإستشهاد وإنما بهاجس إبداع نص جديد متميز فيغدو النص ملتقى يلتقي فيه منتج النص بقارئه.

إن الجهاز المفاهيمي الذي وضعته كريستيفا إثر بلورتها أسس نظرية النص،أتاح لمفهوم النص الإنفتاح، يظهر ذلك من خلال التعريفات المختلفة التي قدمتها للنص:

1-**الممارسات الدالة** Pratiques signifiantes: إن النص بوصفه ممارسة دالة هو النص الذي يمسرح ويفعل اللقاء بين اللغة بوصفها نسقاً دالاً ومفتوحاً وبين الذات الكاتبة المتلفظة بوصفها ذاتا متعددة فيصبح(التعدد كائن في صميم الممارسة الدالة؛وهذا ما يجعل الدلالة لا تحدث بطريقة واحدة، و ليس ذلك بمقتضى مادة الدال فحسب، بل راجع إلى تعدد الذات أيضاً).

2- إن النص الحديث الولادة بوصفه نصا حاضناً لجملة نصوص وصيغ خطابات انطلاقا من الذات الكاتبة، مروراً بالسياق الإجتماعي والفضاء الثقافي إلى المتلقي هو ما تطلق عليه كريستسفا "النص بوصفه إنتاجية le texte comme productivitie" فيغدو النص ملتقى للتفاعل الدينامي للإنتاج يلتقي فيه منتج النص بوصفه ذاتاً متشبعة و ثرية المرجعية بقارئه. إذ إن المرجعية الثقافية لدى القارئ هي التي تعضد تصوره على قراءة النص وكذا محاورته و فك شفراته و تأويله ثم الإسهام في إنتاجيته أي إعادة كتابته من جديد، نتيجة لذلك،(يصبح النص نمط إنتاج دال يشغل مكانة دقيقة في التاريخ) و بما أن كريستيفا لا تحيل إنتاجية النص إلى مؤلفه فحسب بل(تشرك متلقيه في تركيبة ملامحه) أيضاً بوصفه متلقٍ إيجابي يغدو "النص دائماً في حالة إنتاج و سيرورة عمل، لا يكف عن التفاعل و عن تعهد مدارج الإنتاج. و لا تظهر الإنتاجية بوضوح، ولا تصبح إعادة توزيع اللغة مكتملة، إلا عندما يبدأ الكاتب و القارئ أو أحدهما في مداعبة الدال. غير أن حضور المؤلف داخل النص لم يعد صوتاً سلطوياً يتحكم في دلالة النص و في عملية تأويله، و إنما صار دوره هو النسخ و الربط أو الحياكة بين النصوص وصيغ الخطابات والأنواع الأدبية واللا أدبية ليس بهدف التكرار أو الاستشهاد وإنما بهاجس إبداع نص جديد متميز فيغدو النص ملتقى يلتقي فيه منتج النص بقارئه.

أما بالنسبة للمؤلف، فإن مداعبة الدال هي نوع من التلاعب بالكلام، أو نوع من الجناسات. أما بالنسبة للقارئ، فهي نوع من ابتكار المعاني الجديدة، حتى و إن كان مؤلف النص لم يقصدها أو كان من المحال توقعها؛ذلك أن(الدال ملك مشاع) أي أن معاني النص نتاج تفاعل الذات الكاتبة مع الذات المتلقية و عليه، لم يعد النص أحادي الدلالة بل صار ينهض على تعددية

الدلالات الغير المستقرة وغير الثابتة التي تحيلنا بدورها إلى سيرورة دلالية لا نهاية لها من خلال إعادة توزيع اللغة بين مؤلف النص و متلقيه.

المصادر المعتمد عليها لتحرير المحاضرة:

-جوليا كريستيفا،علم النص،تر/ فريد الزاهي.